سنغافورة

فتحت عيني على ضوء النهار يتسرب خلال زجاج النافذة والستارة البيضاء الخفيفة . لذيذ هذا الشعور بالدفء ، بالصوف الناعم الذي يحتويني ، والمرتبة اللينة الضيعة تحت جسدي . الحجرة ليست واسعة ولا ضيقة ، جدرانها مطلية بلون أزرق خفيف فضي ، والأثاث يقف بأرجله الرشيقة فوق البساط السميك . هنا تشعر أنك معزول تماماً عن العالم الخارجي ، تسترق السمع فلا يصل إليك سوى صوت السكون التام . ضغطت على الزر الأبيض بجوار السرير فانسابت أنغام الموسيقى تنبض كاليوم لوليد بإيقاعها المرح .

قررت أن أبقى مستلقياً أستمتع بلحظات من الرفاهية الطارئة ، ولكن بعد قليل أحسست بالقلق يزحف علي بالتدريج . لماذا هذا الشعور بالإثم ينتابني كلما عشت حياة الرفاهية ، ولو لبضعة أيام . جاهدت طويلا لأتخلص منه بدون جدوى . قفزت من السرير واتجهت إلى الحمام طالعتني مساحات القميشاني الناصع البياض ، والفسيفساء الزرقاء ، وصنابير الكروم اللامعة ، وشممت رائحة الصابون المعطر ، والفوط النظيفة . خلعت ملابسي وتركت نفسي تحت سيل المياه الدافئة تغسل عرق السفر ، وتعابه ، والتساؤلات التي تحملها النفس معها في كل مكان .

كانت الساعة تدق الثامنة عندما دخلت المطعم البرتقالي اللون ، بموائده الدائرية ، تحتل مساحة واسعة في بدروم فندق « الأكواتوريال » . جاءتني همهمة الأحاديث المتصلة وأنا أحتسي فنجان القهوة الساخنة ، وأحس بتيار اليقظة والتنبه يسري إلى عقلي مع كل رشفة ، مثل شحنات صغيرة منعشة من الكهرباء .

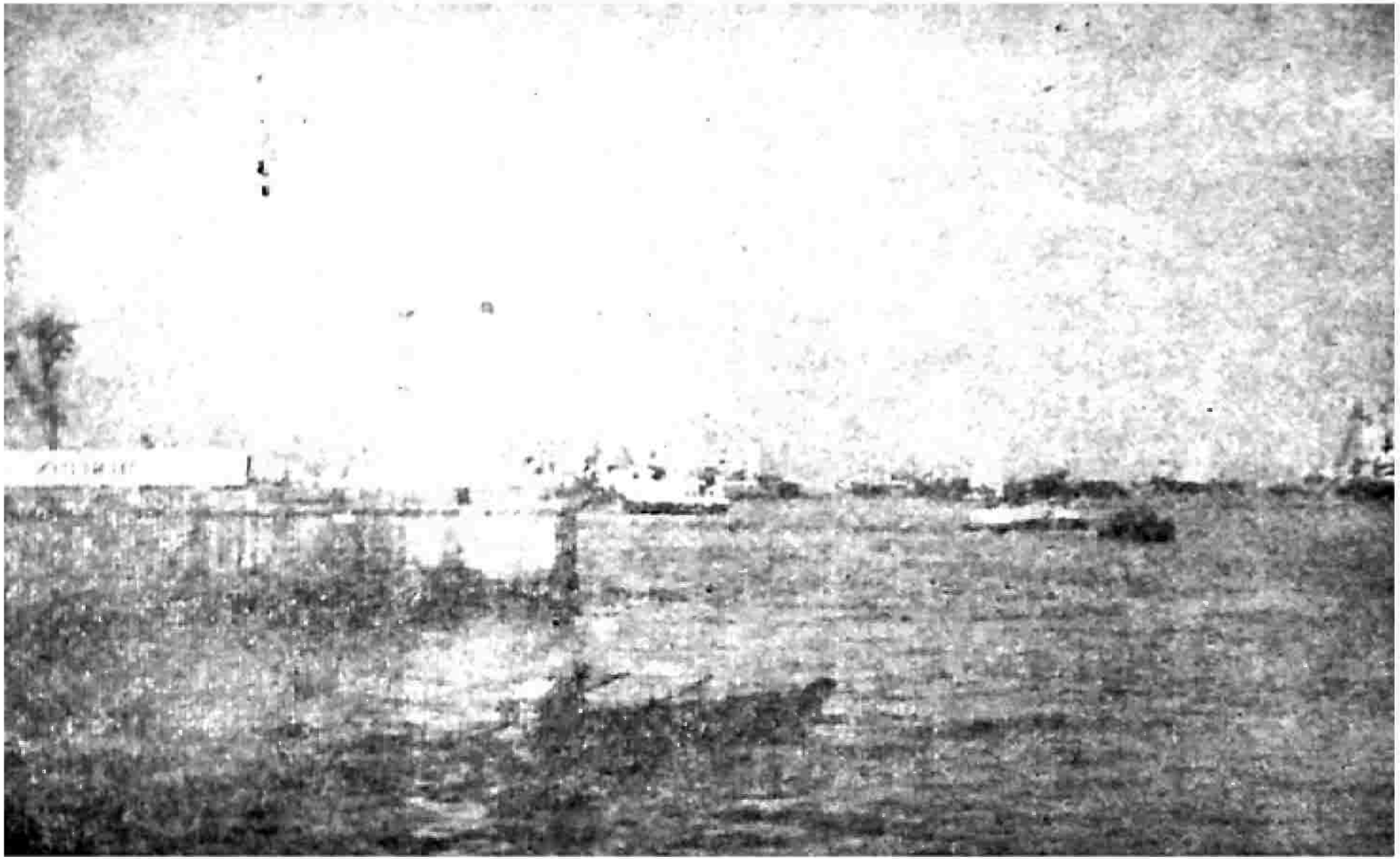

سنغافورة : التنين ذو العينين الحمراوين يحرس الميناء

الأسرة التى تجلس إلى جوارى من مانيلا . كما أدركت من الحديث . الأب يرتدى قميصاً مزخرفاً [illegible] ويبعث دخان سيجارته السميك . وهو يميل إلى الوراء كأنه راض عن الدنيا وعن نفسه . الأم والصبى والفتاة يثرثرون بالإنجليزية . ينطقونها بتلك النغمات الآسيوية المشوهة التى تنم عن محاولة لتقليد الأمريكان . تبدو عليهم علامات الثراء من ملابسهم الأنيقة . ومن تلك الطريقة فى التصرف التى تشعرك بأنهم تعودوا الرفاهية . وأن لا شىء يقلق بالهم .

كنت أضيق دائماً بالذين يصرون على التحدث بلغة أجنبية . وهى ظاهرة لا تجدها إلا بين فئات محدودة فى مصر . ولكن هنا . فى هذه المنطقة من العالم . الجميع يتحدثون بالإنجليزية . كأنه شىء عادى تشعر معه ببصمات الغرب ثقيلة على الحياة الثقافية والفكرية . وبنوع من الطمس للشخصية الوطنية يترك أثراً عميقاً على فئات واسعة من الناس . فاللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية تستعمل فى الصحافة والنشر ، والإذاعة وجميع المراسلات الحكومية أو التجارية . سواء فى تايلاند . أو سنغافورة أو ماليزيا .

كان الفندق مزدحماً بعدد كبير من الأمريكان والإنجليز ، تقابلهم فى كل خطوة : فى المصعد فى أثناء الصعود والهبوط . وفى البهو العريض ينثرون أجسادهم الطويلة فى المقاعد الجلدية السوداء ويلقون بنظراتهم المتعالية على الداخلين والخارجين ، وعند المدخل . يستعدون لرحلة اليوم الجديد . أو يستقلون السيارات الفارعة اللامعة تنطلق عبر الشوارع ، أو فى حمام السباحة يعرضون بشرتهم البيضاء للشمس عسى أن يصيبها شىء من السمرة .

وعندما تنتقل فى كل من بانجكوك وكوالا لامبور وسنغافورة يمكنك أن تلمس عن قرب لماذا يتشبث الأمريكيون والإنجليز بهذه البلاد ، ويبذلون كل جهد ممكن لتأجيل يوم الرحيل . فهنا تدرك المعنى الحقيقى للثراء .

الشوارع العريضة ، والحدائق التى تمتد بزهورها على مساحات شاسعة ، ومنازل كالقصور تطل من داخلها الأضواء الخافتة : وأشباح الرياش والتحف : والغابات الكثيفة ، والفواكه ، والزهور الثمينة ، والمعادن ، والمطاط يسيل كاللعاب الأبيض فوق الجذوع السمراء : والطبيعة الساخنة السخية . والليالى تلمع فيها أبهاء الفنادق تبدو كقصة ألف ليلة وليلة ، والجواهر تلمع عند الأصابع ، وفوق الشعر الأسمر الطويل ، وهمسات النساء ، والضحكات الناعمة المرتاحة ، والسيارات تنساب فوق الأرض كالزوارق ، أو تقف أمام بيوت الليل غارقة فى الوهج الأحمر حتى الفجر .

هنا يحيا أسياد العالم : ملوك المال ، يمارسون المتعة إلى مستوى يفوق الخيال .

وسنغافورة ميناء ضخم ، ملتقى خطوط التجارة فى الشرق ، منطقة حرة يسكنها خمسة ملايين من البشر .

وفى مدينة سنغافورة إلى جانب الأسياد الأجانب الذين يملأون الفنادق وينتقلون بين أرجائها فى سياراتهم الفاخرة ، ويحملون حقائب « السمسونايت » فى رحلاتهم بين عواصم العالم ، توجد جاليات أخرى لها دور فى التيار التجارى الضخم الذى يمر عبرها .

لم أكن قد رأيت الصينيين من قبل ، وعندما خرجت من الفندق فى ذلك الصباح الغائم الحار ، لم أكن أتصور أننى سأكتشف أشياء جديدة على تماماً ، برغم كل ما قرأته وسمعته عن الصين الشعبية ، وعن شعبها .

أمام محطة الأتوبيس ، وقف الناس ينتظرون . كان الزحام شديداً . فالوقت وقت الذهاب إلى العمل ، والمدارس مفتوحة فى فصل الصيف ، ولكن عندما توقف الأتوبيس الضخم فجأة فى المكان الذى كنا نقف فيه تماماً ، تحرك الطابور الطويل فى سرعة هادئة ليصعد السلم . لم يحاول

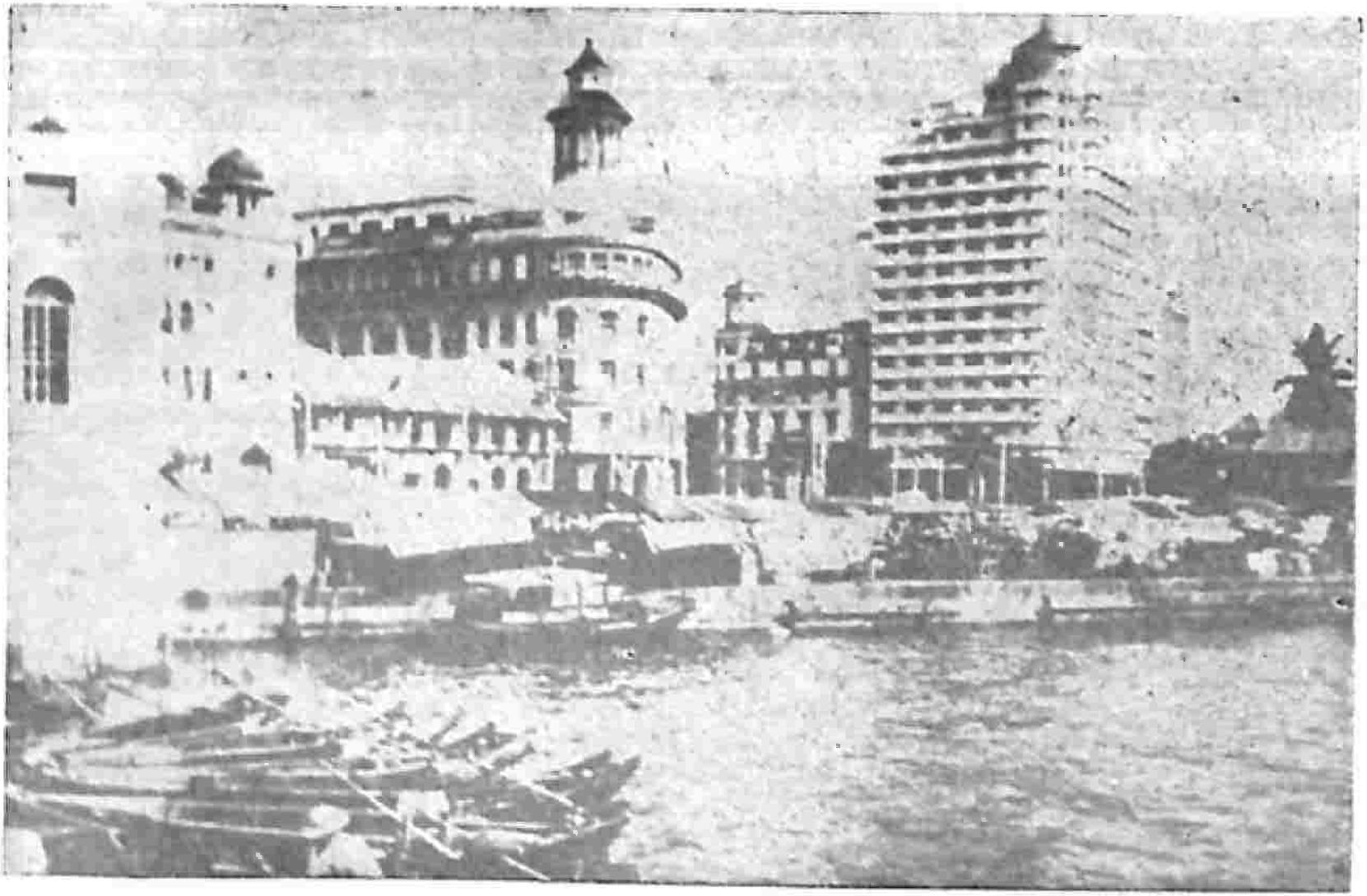

سنغافورة : الحى التجارى حول الميناء ، والعمارات الشاهقة

أحد أن يندفع قبل غيره ، ولم أشعر بأحد يدفعنى من الخلف ؛ أو يسحق أصابع قدمى تحت حذائه . أو يضرب مرفقه المدبب فى ضلوعى . وقفت خلف السائق أتطلع إلى الشعاع العريض الممتد أمامى أتابع السباق المنظم بين السيارات المسرعة . طلبت من الكمسارى أن أنزل فى « شنتون واى » كانت المسافة طويلة . ومرت أكثر من نصف ساعة بدون أن يلتفت إلى فظننت أنه نسينى . وأننى سأضل الطريق . ولكن بعد قليل اقترب منى وقال :

« شنتون واى . . . المحطة القادمة » . ثم ضغط على زر أحمر ليفتح الباب . ووجدت نفسى فى الشارع أدور بعينى على المبانى البيضاء وساحات الحشيش بالأشجار ، ترتفع وسطها نافورات المياه ، وتماثيل من الرخام الأبيض . عبرت قنطرة طويلة ضيقة للمشاة لأجد نفسى أمام الميناء . المياه الممتدة حتى الأفق رمادية زرقاء . والبواخر راسية فى هدوء بمداخنها الصامتة تنتقل بينها القوارب الصغيرة فى حركة دائبة مثل خلية النحل .

الذين يسمونهم « الخطر الأصفر » !

المنطقة المحيطة بالميناء تعتبر من أكبر الأحياء التجارية ترتفع المبانى الشاهقة حولها فى نصف دائرة تفصل بينها عشرات الممرات . وعبر هذه الممرات يمر الناس فى سيل لا ينقطع . جاءوا من كل بلاد العالم إلى هذه البقعة . يبحثون عن ذلك الشرق الغامض الذى يثير الخيال .

دلفت إلى أحد الممرات . طريق ضيق للغاية على جانبيه حوانيت صغيرة . أو مجرد رفوف خشبية تكومت فوقها تلال من البضاعة . آلاف الأصناف وآلاف الألوان ؛ ومئات من الناس ، لمحت مقهى صغيراً فى منتصف الممر . حجرة بها عدد من الموائد ، والمقاعد الخشبية ، فدخلت وجلست .

سنغافورة : الحروف الصينية والزحام وأكشاك الباعة

وعندما تطلب مشروباً تفتح الزجاجة وتوضع أمامك فى لمح البصر ومعها « شفاطة » من البلاستيك الأبيض . وعلى كل مائدة « طفاية » سجاير صغيرة بها كبريت وشفاطة . والمكان خال من الذباب تماماً . فبين الحين والحين يقوم أحد العاملين برش سائل مبيد من رشاشة صغيرة تطلق رذاذاً معطراً فى الجو .

والمحل يقدم إلى جانب المشروبات أنواعاً أخرى من المثلجات . الأيسكريم الذى تكتشف معه أن كل ما أكلته من قبل لم يكن «أيسكريما» و « الشندو » يوضع فى أطباق خاصة . صغيرة الحجم تشبه الفنجان المسطح معه ملعقة لها يد قصيرة . وهو عبارة عن لبن . وجوز هند مع الثلج المبشور . وفواكه جافة فى شكل مربعات جيلاتينية ملونة . وأعشاب بحرية مسكرة فى شكل خيوط حمراء وخضراء قوامها يشبه الجيلاتين أيضاً .

وعندما يأتى وقت الحساب . برغم الزحام الشديد : وبرغم هذا العدد الهائل من الناس الذين يدخلون المكان ويغادرونه . وبرغم جلوس الناس مختلطين حول الموائد . تكتشف أن الرجل النحيف الهادئ الذى يقف أمامك لا يحاول أن يتذكر الحساب ، إنه يترك المسألة لك تماماً يكتفى بسؤالك عن المشروب الذى طلبته ، وعن عدد قطع الكعك أو الفطائر التى أخذتها من الطبق الموضوع فوق المائدة . ولكن فى الوقت نفسه يجيئك إحساس خفى بأنه يعرف تماماً حساب كل واحد من الذين يجلسون فى المحل . وأنه قادر على تصحيح أى خطأ بذلك الأدب الجم الذى يقابلك به الناس فى كل مكان .

هكذا هم الصينيون . أو على الأقل الصينيون الذين يعيشون كأقليات فى مختلف البلدان التى زرتها فى أثناء رحلتى الآسيوية . قدرة على العمل المستمر تبدو أنها بغير حدود ، دقة ، وهدوء ، وصبر مدهش . أمانة

ستغافورة : رقصة التنين فى الشوارع تؤدّى فى مناسبات خاصة

لا يتطرق إليها الشك . فإذا قال لك الصينى إن ثمن السلعة كذا يمكنك أن تطمئن إلى صدق قوله . أدب ، ورقة فى التعامل مع الآخرين ، انسجام طبيعى مع الأسلوب المنظم فى الحياة ، وفى العمل ، وميل إلى أن يضفى على الأشياء الحميمة به قدراً كبيراً من النظافة والجمال .

لقد أطلق الاستعمار على شعب الصين لفظ « الخطر الأصفر » لعشرات السنين . وكان الغرض هو تخويف بقية العالم من تقدم الصين ، وتعبئة الجهود ضدها . وكان الغرض أيضاً التفرقة بين الشعوب على أساس اللون وإثارة نزعات التفرقة العنصرية . ولكننى عندما رأيت صفات الشعب الصينى وقدراته ، أدركت سبب الذعر الذى أصاب المستعمرين الأجانب فى مواجهة الجهود التى يبذلها هذا الشعب للقضاء على ميراث التخلف . فهذه الصفات والقدرات تنبئ بمعجزات تستطيع الجماهير الصينية أن تحققها وتفسر إلى حد كبير ما يصل إلينا عن نجاحهم فى مجالات مختلفة اقتصادية ، وصحية ، وتعليمية . فإلى جانب دور الحزب الشيوعى ، والتنظيمات السياسية ، والمثل الذى تضربه الزعامات السياسية ، توجد هذه الصفات الأصيلة للشعب الصينى .

عندما يخرج الإنسان من حدود بلاده إلى العالم الرحب الواسع تتفتح أمامه آفاق وحقائق جديدة وتتبخر كثير من الأفكار المسبقة ، والآراء الجامدة ، ويدرك أن قضية التطور الإنسانى معقدة . ذلك أن كل شعب نتاج تاريخ طويل ، ومعارك طويلة ، وتطورات معقدة دخلت فى تكوينه وبدون معرفة دقيقة لكل ذلك لا يمكن قيادة الشعب فى طريق التقدم .

وأعترف أن الإعجاب الذى أحسست به إزاء الصينيين ، صاحبه تساؤل حول أشياء تذكرتها فى بلادى . فالحضارة المصرية شأنها شأن الحضارة الصينية عريقة ، أصيلة ، تضرب بجذور عميقة فى التاريخ . ومع ذلك بدا لى أن التطور فى بلادنا مشكلة أكثر تعقداً ، وأن الطريق أمامها ليس ممهداً بالقدر نفسه . الصين مثلنا كانت هدفاً للغزو الاستعمارى ، ولكن حجم

البلاد ، ومساحاتها ، وضخامة عدد سكانها جعلتها مجتمعاً مغلقاً إلى حد كبير ، ومجتمعاً يصعب السيطرة عليه . وهذا الانغلاق ربما أفاد في بعض النواحي . فقد سمح بالحفاظ على التراث . وعلى صفات أصيلة موروثة من الماضي الطويل ، سمح بالحفاظ على نوع من الانسجام الاجتماعي ، على الروابط ، على علاقات يمكن أن تكون أساساً لتطوير جديد . ربما لمس ماوتسي تونج جزءاً من الحقيقة عندما قال : « إن الشعب الصيني مثل الصفحة البيضاء يمكن أن ترسم عليه أجمل الألوان » . الشعب الصيني ، شأنه شأن كل الشعوب ، لم يكن صفحة بيضاء ، ولكنه كان صفحة احتفظت بكثير من نقائها ، صفحة أمكن وقايتها من بعض عوامل الإفساد ، صفحة يمكن إعادة صياغتها بقدر أكبر من السهولة .

أما مصر فأوضاعها اختلفت في كثير من النواحي . السكان محصورون في الشريط الضيق لوادي النيل . والزراعة تعتمد على الري . والري يعتمد على إيجاد سياسة مركزية قوية تنظمه . ولذلك اتبع المصريون منذ آلاف السنين نظام الحكومة المركزية للسيطرة بسهولة على المساحات المحدودة حيث يتركز السكان .

وموقع مصر يقع في سرة العالم ، تتدفق إليها التيارات من الشرق والغرب ، وتمر عبرها تجارة العالم وأفكاره . استهدفت لغزوات لم تنقطع من الهكسوس ، والفرس ، واليونانيين والرومان . والتتر والعرب والصليبيين ، والأتراك ، والمماليك ، والفرنسيين ، والإنجليز .

مصر مجتمع مفتوح ، ليس بالمعنى الذي يقصده بعض المفكرين من الغرب ، ولكن بالمعنى المضاد للمجتمع المغلق . وهذا التفتح الذي يقصده المفكر الغربي ، يفتت في البنيان الاجتماعي ، ويضعف الروابط ، وينشر التفكك ، والتنوع ، ويقوي الاتجاهات الفردية ، وعدم الرغبة

فى الخضوع للنظام الموحد والسلوك الموحد .

وعوامل التفكك والإفساد هذه لعبت دورها منذ آلاف السنين . ولولا قدرة المصريين المدهشة على استيعاب الغزو الخارجى بمختلف أشكاله . وصوره . وعلى تمثله . لما احتفظ المجتمع المصرى بشخصيته القومية . المميزة . العميقة الجذور .

هذا التفتح يجعل المصريين يميلون أكثر من الصينيين إلى الفردية وإلى إخضاع المسائل للمقاييس العقلانية . ففى مصر كل شىء يناقش . وكل شىء يشك فيه . وكل شىء يخضع لتقدير الفرد . وكل هذه الصفات تدل على التقدم . ولكنها فى الوقت نفسه عندما تتعدى حدودها تجعل النظام . والتحرك الجماعى . أمراً أكثر صعوبة .

التعقيم بعد الطفل الثالث !

دفعت الحساب وخرجت إلى الممر ثم إلى الشارع وركبت الأتوبيس . اكتشفت أن الكمسارى يعرف مقر تنظيم الأسرة . سألته إن كان يمارس أى نوع من أنواع التحكم فى الإنجاب فأجاب بأن زوجته أجرت عملية تعقيم بعد طفلها الثالث بالاتفاق معه . ودعنى بابتسامة صينية فلوحت له بيدى من على رصيف الشارع .

كنت على موعد مع رئيس جهاز تنظيم الأسرة . ولكن عندما دخلت الحجرة وجدت أربعة أشخاص فى انتظارى . رئيس الجهاز نفسه . رجل صينى الملامح تبدو عليه الجدية إلى درجة الصرامة . وتوحى إليك نظراته المباشرة الثابتة بأنه يفحص الشخص الجالس أمامه . ويحاول أن يضعه فى ميزان دقيق . والمسئول عن الإعلام اسمه الأول من أصل إنجليزى واسمه الثانى من أصل ألمانى تشعر فى طريقة كلامه وفى تصرفاته أن نموذجه فى الحياة هو رجل الأعمال العصرى . وسيدتان إحداهما

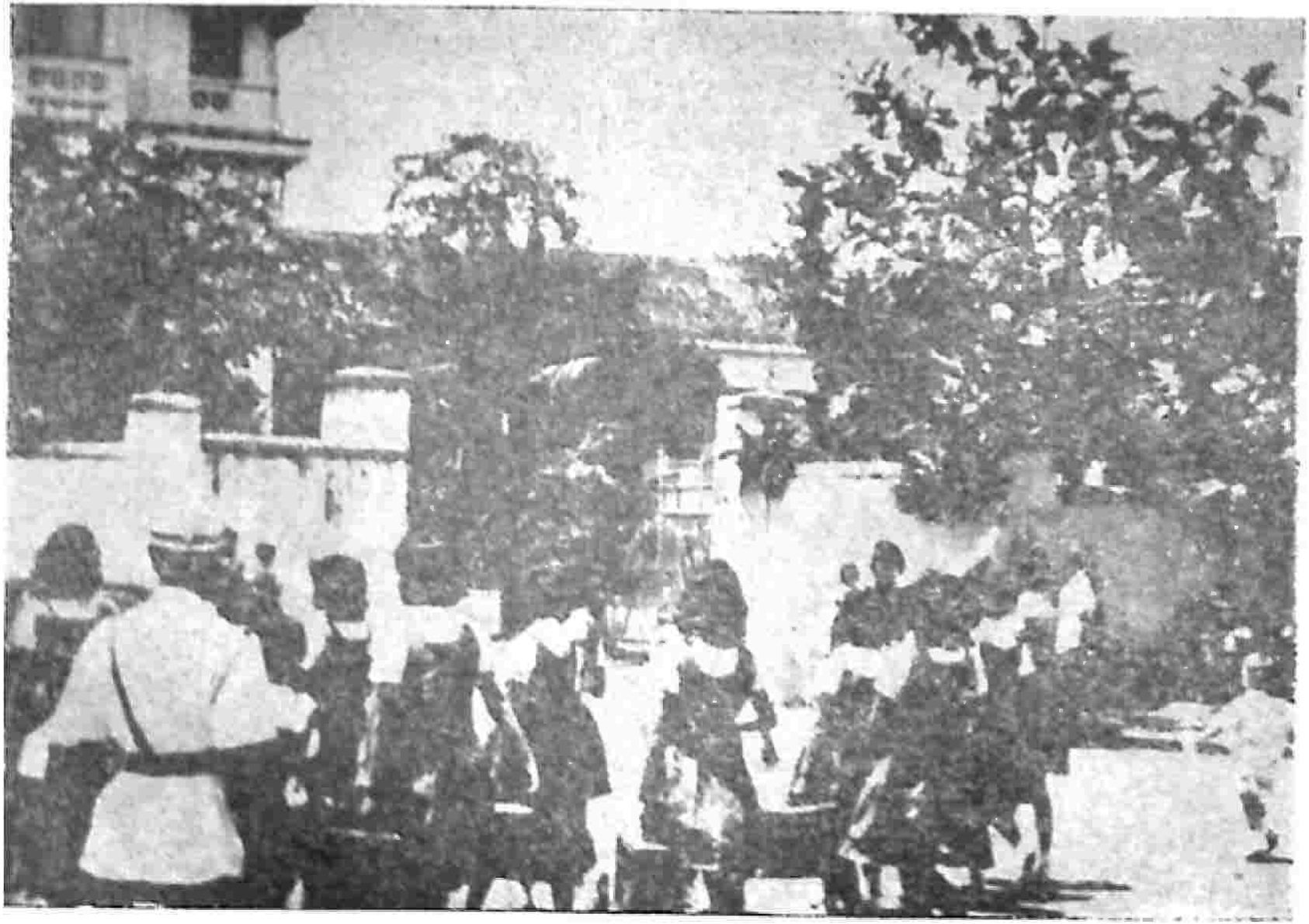

ستغافورة : شرطي المرور يحرس أطفال المدارس

تتولى الإشراف على الخدمات الطبية المتعلقة بتنظيم الأسرة والأخرى مديرة إدارة التدريب . ولم تكن هذه أول مرة أذهب فيها لمقابلة أحد المسئولين . فأجد فى انتظارى ثلاثة أو أربعة أشخاص . فقد حدث هذا عديداً من المرات ليس فى هذه الرحلة فحسب . ولكن أيضاً عندما زرت الولايات المتحدة الأمريكية فى صيف ١٩٧١ . إنه أحد مظاهر الأسلوب الجماعى ومحاولة لكى يستفيد المسئولون الأساسيون من الاتصال بالزائر الأجنبى ، ومن المناقشة معه ، واعتراف بأن أى مشروع أو عمل هو حصيلة مجهود عدة قطاعات لا يستطيع شخص بمفرده أن يلم بجميع جوانبه . وهى أيضاً محاولة لتربية قيادات جديدة ، وفتح مجالات الخبرة والمعرفة أمامها .

ومثل هذه المقابلات الجماعية تضفى حيوية ودفئاً على الجلسة ، وتجعلك تشعر أنك خرجت منها بمقدار أوفر من المعلومات لمختلف نواحى الموضوع الذى أتيت لدراسته .

تناولنا القهوة بالبن وأشعلت سيجارتى . لم يكن أحد منهم يدخن . قالوا لى :

« الطبيب ينبغى أن يضرب به المثل » . أحسست بشىء من الخجل إزاء ضعفى سرعان ما ذاب فى دفء الابتسامة . جلسنا حول مائدة الاجتماعات وبدأت المناقشة .

« لماذا تهتمون بتنظيم الأسرة وأنتم عبارة عن مدينة عدد سكانها خمسة ملايين ومن أكبر المراكز التجارية فى العالم ؟ »

« لأن لدينا قطاعات فقيرة تواجه الصعوبات فى رعاية عدد كبير من الأطفال وتربيتهم ، كما أن الفئات المتوسطة فى المجتمع تريد أن تحقق مستوى أرقى لحياتها وحياة أطفالها » .

« ولكن بلدكم غنى ومستوى المعيشة فيه مرتفع ، وهناك فئات واسعة

تحصل على دخول خيالية بالنسبة إلينا ، كما أن هناك أصحاب ثروات طائلة ؟

« هذا صحيح . ولكن أغلب المكاسب تذهب للشركات الأجنبية ، وتوجد فئات فقيرة ، كما قلت مثل الحرفيين ، والتجار الصغار ، والعمال » .

« إذن المشكلة أساساً هو كيف يمكن الاحتفاظ لأنفسكم بالأموال التى تدخل إليكم وأن توزع بطريقة أفضل » .

ساد الصمت قليلا وأحست بنوع من الحرج فى وجوههم ، ثم قالت إحدى الطبيبتين :

« نحن أطباء ولسنا سياسيين » .

« هذا صحيح . ولكننا جميعاً مواطنون فى بلادنا » .

قال مسئول الجهاز :

« المسألة ليست سهلة . فنحن مركز للتجارة العالمية ، والاحتكارات تسيطر على هذه التجارة . التغيير يحتاج إلى وقت ، وإلى تطور كبير فى أوضاع البلاد الآسيوية . وفى الفترة الأخيرة حدث كساد فى الحركة التجارية وأصبحنا نعانى من الأوضاع الاقتصادية ومن البطالة » .

« وماذا تفعلون ؟ » .

« لا بد من التصنيع . وقد بدأنا فعلا فى إقامة صناعة وطنية . ونحن ندرك الآن أن تنظيم الأسرة ليس بديلا للتنمية . ولكنه يمكن أن يكون عنصراً مساعداً ومهماً فى البلاد التى تعانى من الانفجار السكانى . . . بلادكم مثلا » .

« هذا صحيح . ولكن أظن أن المشكلة عندكم لم تصل إلى مستوى الانفجار السكانى » .

« إنها لم تصل ، ولكننا نعتبر أنها تتعلق برفاهية الأسرة وصحتها . ونحن

نهتم كثيراً بصحة الأسرة . والأم . والأطفال . فالأطفال هم ذخيرة المستقبل » .

« ومشروع تنظيم الأسرة كيف يعمل عندكم ؟ »

« خدمات رعاية الأمومة والطفولة متوافرة لكل السكان . وهي على مستوى عال . وجميع النساء يستفيدون من هذه الرعاية قبل وبعد الولادة . والأغلبية الساحقة يضعن أطفالهن في المستشفيات . ونحن نستفيد من هذه الخدمات لنبث فكرة تنظيم الأسرة في أثناء ترددهن على العيادات . أو عندما يقمن في المستشفيات عند الوضع . والوسائل المستخدمة متنوعة . الحبوب . واللولب . والتعقيم . عن طريق عملية جراحية تجرى على قناة المبيض » .

« وما موقف الرجال عندكم ؟ »

« إنهم يتجاوبون في أغلب الأحوال . وعدد منهم يطلب التعقيم لنفسه بعد الطفل الثاني أو الثالث ونجريها في العيادات الخارجية . فهي عملية سطحية لا تستغرق أكثر من عشر دقائق » .

« ألا توجد صعوبة في إقناع الناس بتنظيم الأسرة ؟ »

« في المراحل الأولى لم يكن الأمر سهلا وكانت هناك مقاومة للفكرة . ولكن الآن الشباب المتزوج يقبل عليها بسهولة . فهم يريدون أن يستمتعوا بحياتهم . وأن يخففوا عن أنفسهم أعباء الحياة .

ولكن الصعوبة في الذين تزيد سنهم على ٣٥ سنة . إنهم ما زالوا متأثرين بالنظرة القديمة للحياة . بنوع من التواكل . وعدم القدرة على إدراك التغيير الذي حدث . وهذه الفئات نسميها "بالقناة الصلبة" »

استمرت المناقشة تدور حول المائدة ساعتين كاملتين . شعرت بحركة انصراف في المكاتب فهم يحترمون مواعيد الغداء والراحة . قمت واستأذنت . نزلت درجات السلم اللامعة من فرط النظافة إلى الشارع . قابلتني لفحة الحرارة خارج المبنى . كانت السيارة البيضاء « تويوتا » تنتظرني . لتحملني

إلى أحد مراكز رعاية الأمومة والطفولة . ثم إلى مستشفى مخصص للولادة .

كانت الساعة تقترب من الخامسة عندما توقفت السيارة أمام المستشفى . صعدت إلى حجرتى . سحبت أحد المقاعد وأخذت أطل من النافذة العريضة على غابات الأشجار تتخللها البيوت البيضاء ذات السطح المثلثة المغطاة بالبلاط الأحمر . تذكرت منظراً رأيته فى العيادة التى زرتها . رجل أسمر نحيل تبدو عليه سيماء الموظف . وإلى جواره زوجته فتاة جميلة يتميز وجهها بتلك التقاطيع الآسيوية الدقيقة التى تقابلك فى كل مكان .

سألته الطبيبة :

« ما مهنتك ؟ »

قال :

« سجان » .

نظرت إليه باهتمام زائد فلم أكن أتوقع أن أقابل سجاناً فى أثناء رحلتى .

« ولماذا أتيتما ؟ »

« زوجتى تريد أن تجرى عملية تعقيم » .

لاحظت أنه هو الذى يتكلم .

توجهت الطبيبة إلى الزوجة بعينيها . فقالت :

« أنا موافقة على هذا . ومستعدة للإمضاء » .

« ولماذا تريد إجراء هذه العملية » .

قال الزوج :

« عمرى الآن ٤٢ سنة . ولدى ثلاثة أطفال . مرتبى لن يزيد كثيراً . والحياة تبعاتها كثيرة . أريد أن أعطى أولادى الثلاثة أحسن الفرص . ثم لا داعى لأن أتحمل عبئاً جديداً فى هذه السن وأن أكبر قبل أن أنتهى من تربية أولادى » .

التفتت الطبيبة إلى الزوجة مرة أخرى وقالت :

« وأنت ؟ »

« أوافق على هذا الكلام . أنا لا أعمل ومع ذلك فأعباء المنزل كثيرة ، ولم يعد من الممكن الحصول على شغالة . وليس من السهل أن نتكفل بطفل آخر » .

أدركت أنني أشاهد تطوراً من تطورات العصر . كل شيء يخضع بالتدريج للتفكير ، كل شيء لاينبغي أن يخضع للمصادفة العمياء ، حتى ولادة الطفل . فالطفل إنسان ، والإنسان مسئولية .

سنغافورة بدون مساحيق !

السفر يولد عندى نوعاً من القلق . فأنت تشعر أن الزمن محدود ، وأنه ما زالت هناك أشياء كثيرة لم تروها . ولذلك أندهش دائماً من رفاقى فى السفر الذين يصعدون إلى حجراتهم ، ينامون ملء جفونهم ساعتين أو ثلاثاً ويرتدون ملابسهم على مهل ، ويتناولون طعامهم فى المواعيد المقررة ، فيضيعون فى هذه العمليات الروتينية نصف أيامهم .

الحجرة فى أثناء السفر تبدو لى كالزنزانة ، لا أطيق البقاء فيها ، إلا عند ساعة متأخرة من الليل عندما يفرض الإرهاق ضرورة الإيواء إلى الفراش ، أو فى فترات قصيرة يتطلبها تغيير الملابس والحلاقة والاستحمام ولحظات من الراحة . أما بقية الوقت فأقضيه فى التنقل المستمر من مكان إلى مكان ، أتناول طعامى فى المقاهى والمطاعم التى أصادفها فى أثناء التجول وأحياناً على قارعة الطريق ، أمام الأكشاك الخشبية ، أو من الباعة المتجولين ، آكل مما يأكل الناس ، وأراقب حياتهم وعاداتهم ، وأقف فى الزحام بينهم .

وفى كل مدينة عندما تسأل الاستعلامات فى الفندق ، أو الأشخاص الذين تصادفهم فى أثناء العمل عن مكان تبتاع منه شيئاً تريده ، أو

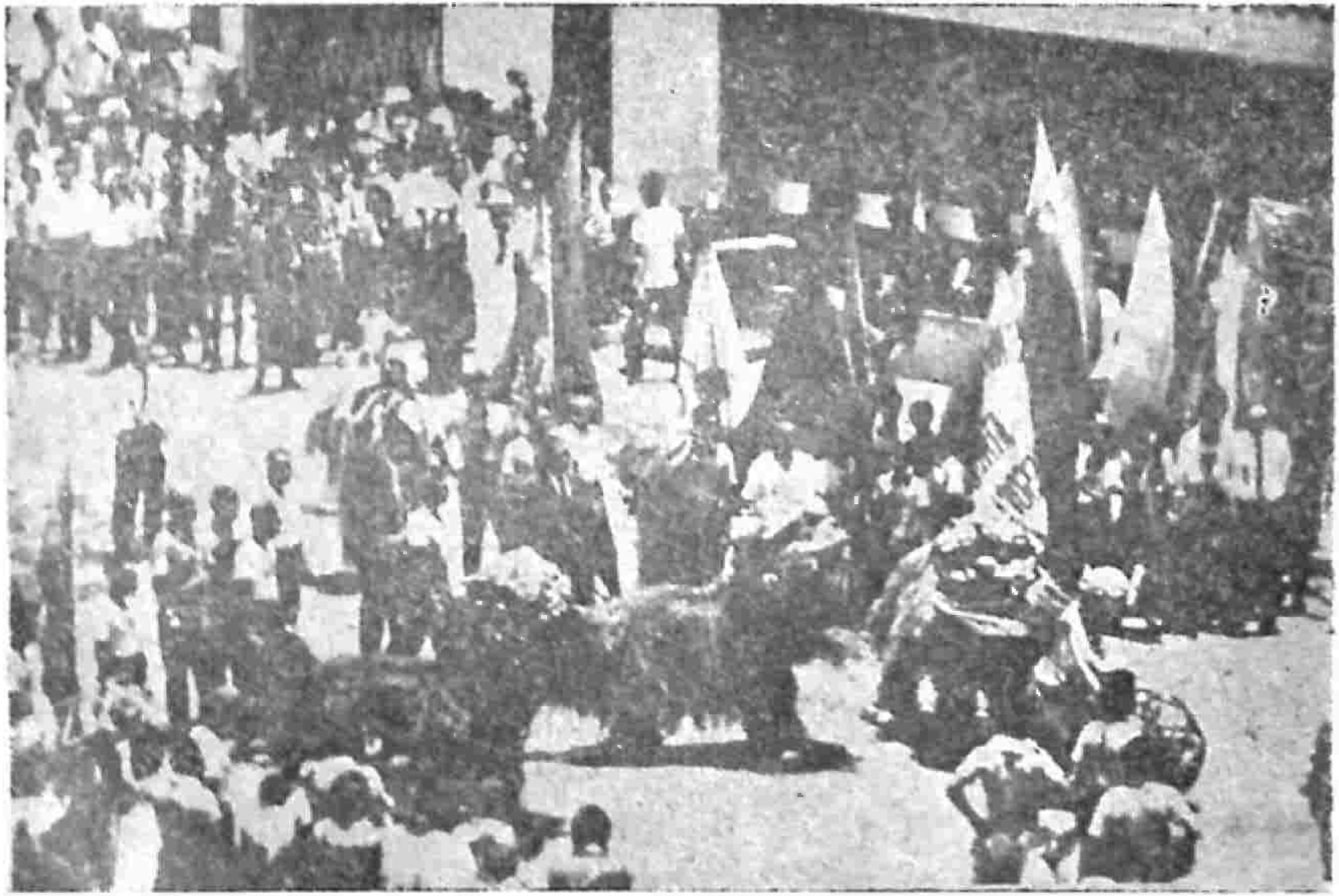

سنغافورة : رقصة الأسد فى الشارع

تقضى فيه بعض الوقت بعد عناء اليوم . تجدهم يدلونك على الأحياء الراقية حيث الفنادق الفاخرة . وبيوت المال . والمحلات التى تبيع أغلى الأصناف . وعندما يحدثنى أحد عن هذه الأحياء أهز رأسى استحساناً وأستوثق من طريقة الوصول إليها . ثم أخرج إلى الشارع وقد صممت على أن أضع بينى وبينها أطول مسافة ممكنة . باستثناء المتاحف . والآثار . والأعمال الفنية . والمكتبات . فهذه الأحياء فى أغلب عواصم العالم تتشابه . اللغة قد تختلف . والوجوه قد تختلف . ولكن البذخ المثير للاشمئزاز واحد . والرجال الذين يتزاحمون عليها من النوع نفسه . تجدهم فى كل عواصم العالم . يلبسون آخر طراز . ويتعطرون على آخر طراز . ويضحكون ويتكلمون ويرقصون على آخر طراز . ويضاربون فى بورصة المال والفتنة على آخر طراز . ويستنشقون الهواء الفاسد فى الحجر المغلقة . هنا كل شىء مصطنع مزيف ما عدا الجواهر .

فإذا كنت تبحث عن أشياء حقيقية أصيلة : عن نسيم منعش يكسر التتابع المرهق للأيام والليالى الحارة الرطبة : عن دفء الناس العاديين وانطلاقهم . عن سنغافورة بدون مساحيق وأصباغ ، فاتجه إلى الجنوب . إلى الميناء . الشمس تسقط خلف السحاب عند خط الأفق تغسل الكون بألوانها الوردية . والمبانى البيضاء : وقمم الأشجار . ومياه البحر الممتدة فى الميناء : ورذاذ النافورات تتهايل خطوطه وتلعب مع الألوان . والطريق الدائرى مزدحم بالسيارات المسرعة . يشعرك برغبة فى الهروب من الضجيج . لتلتقى بنفسك فى أحضان الهدوء .

عند أول الكوبرى المعلق فى الفراغ تفاجأ بدرجات عريضة . وتيار من الناس يهبطون عليها كأنهم يسيرون نحو هدف واحد ، وعند أسفل الدرجات طريق واسع مصنوع من الحصى الملونة : وعلى يمين الطريق يتحول البحر بالتدريج إلى لون بنفسجى . الظلام يزحف فوق سماء المدينة : وعلى سطح المياه أضواء السفن تتلألأ كالنجوم التى تولد مع الليل :

تتضع فيها العيون الحمراء متناثرة مغروسة فى رأس التمثال الضخم المنحوت على شكل تنين .

وعلى يمين الطريق الذى يمتد مسافة كيلومتر ونصف سور من الحجر متين ، ومصابيح بيضاء ، وصف طويل من المقاعد . وعلى يساره حديقة واسعة كالبساط الأخضر تتخلله الأشجار . وأحواض الزهور ونافورات المياه . ومقاعد خشبية تحس أنها وزعت بعد تدبير .

والناس يجلسون فى هدوء يتطلعون إلى البحر . أو يسيرون بخطوات متمهلة فوق الطريق . أو عبر مساحات الحديقة تحت الأشجار .

كل الأعمار موجودة . مئات الشباب يتحدثون ويضحكون بدون ضجيج . والعشاق يتهامسون عند السور ويطلون من فوقه إلى الأفق البعيد . كأنهم يحاولون استقراء المستقبل . أو يتهامسون فوق المقاعد وقد كادت رءوسهم تلتصق . والأطفال يمرحون هنا وهناك . أو يبتاعون البالونات المستطيلة من الفتاة الصغيرة التى افترشت الأرض عند المدخل . وإذا تمعنتهم فى لهوهم ولعبهم تكتشف الشىء الغريب فى الأطفال الآسيويين ، نوعاً من الجدية . بل من الوقار ، فلا شجار . ولا ضجيج . ولا صياح . والكبار يوجهونهم دائماً برفق . لا ضرب . ولا عنف . ولا صراخ . ولا شىء من العصبية . علاقة مريحة تحب أن تراها وأن تتفرج عليها .

والأطفال هنا يلفتون النظر وبخاصة إذا لم تكن قد رأيتهم من قبل . فكل شىء فيهم بالغ الصغر . أبدانهم . وعيونهم . وأياديهم . وسيقانهم ، يشبهون العروس المصنوعة من المطاط . فتفاجأ بهم يتحركون فوق سطح الأرض مثل « عقلة الأصبع » وعلى وجوههم سيماء الجد والرزانة . فالطفل الآسيوى مثل الرجل الآسيوى لا تظهر انفعالاته فى وجهه .

عند آخر الطريق وجدت ميداناً واسعاً فى شكل مساحة مستديرة . على الحافة الخارجية للدائرة انتظمت أكشاك مستطيلة من الخشب مطلية بطلاء أبيض يلمع فى ضوء المصابيح . وفوق مساحات الدائرة

كلها وضعت الموائد والمقاعد الخشبية المثبتة فى الأرض . كان الميدان مزدحما بالناس يجلسون حول الموائد .

مررت ببطء أتطلع إلى واجهة المحلات . على جدرانها رسوم ملونة تمثل الأطعمة التى تباع . وكل محل مختص بنوع معين . فهنا عصير الفواكه والمثلجات وأنواع من « الأيسكريم » وهنا القهوة والشاى والساندوتشات والفطائر والكعك . وهنا الخضر والأرز والأطباق المطبوخة . وهنا أنواع السمك والجنبرى والحيوانات المائية والقوقعات . وهنا البيض والطيور . وهنا اللحوم المشوية والمحمرة .

أحسست بالجوع ينقض على فجأة . جلست على أحد المقاعد عند الطرف الخارجى . برغم الزحام لم يزد صوت المتجمعين على شىء يشبه الهمهمة الهادئة . هناك تجلس أسرة بأكملها : الأطفال يغرسون ملاعقهم القصيرة فى تل من الأيسكريم الآسيوى وضع أمامهم . والكبار يشربون عصير الفواكه ويتطلعون إليهم بعيون هادئة . على المائدة الملاصقة لى رجلان يحتسيان الشاى برشفات لا تسمع . ويتحدثان بكلمات لا تسمع . الجو فيه شىء كالسحر . الشجرة العالية ترتعش فى الضوء الأبيض وسحابة ثقيلة تجتاز السماء تنبعث منها بقايا الألوان الذهبية والوردية التى تطلقها الشمس بعد غروبها . على يمينها مساحة صافية من السماء كالنافذة الزرقاء . الأيدى والابتسامات تلتقى عبر الموائد الخشبية . والفتيات يتحركن هنا وهناك وسط الزحام يحملن المشروبات . والأطعمة . بتلك المشية اللينة السريعة التى تحس فيها بالقدرة على الجهد المتقن . وعلى بعد بضعة أمتار بحيرة صغيرة تحيط بها أزهار مائية أغلقت جفونها . وفتاة هندية لفت قوامها الفارع « بسار » أزرق طويل تتطلع إلى البحيرة فى صمت . ورجل يجلس على الجانب الآخر يتابع حركة الناس فى هدوء .

مرت ساعة والناس يروحون ويجيئون . والرجل ما زال بجوار البحيرة . والفتاة الهندية ما زالت مستغرقة فى المياه الساكنة . وأنا جالس فى مكانى

لا أريد أن أغادره . كأنني أصبحت جزءاً من الطبيعة . من تيارها الخفي . من أسرارها . لم أعد أشعر بالحاجة إلى الكلام أو الحركة أو التفكير . يكفيني هذا الإحساس بالذوبان في اللحظة . هذه الوحدة مع الكون . هل كان لا بد من أن أجتاز كل هذه المسافة حتى أجدها ؟

تلفت إلى البحيرة . فوجئت بها ساكنة موحشة . هكذا في لمح البصر . بحثت عن الرجل فلم أجده . بحثت عن الفتاة فلم أجدها . كأن سحراً ما يربط بيننا نحن الثلاثة . أحسست باللحظة تتلاشى وبالحلقة تتكسر . وضعت النقود على المائدة وغادرت المكان .

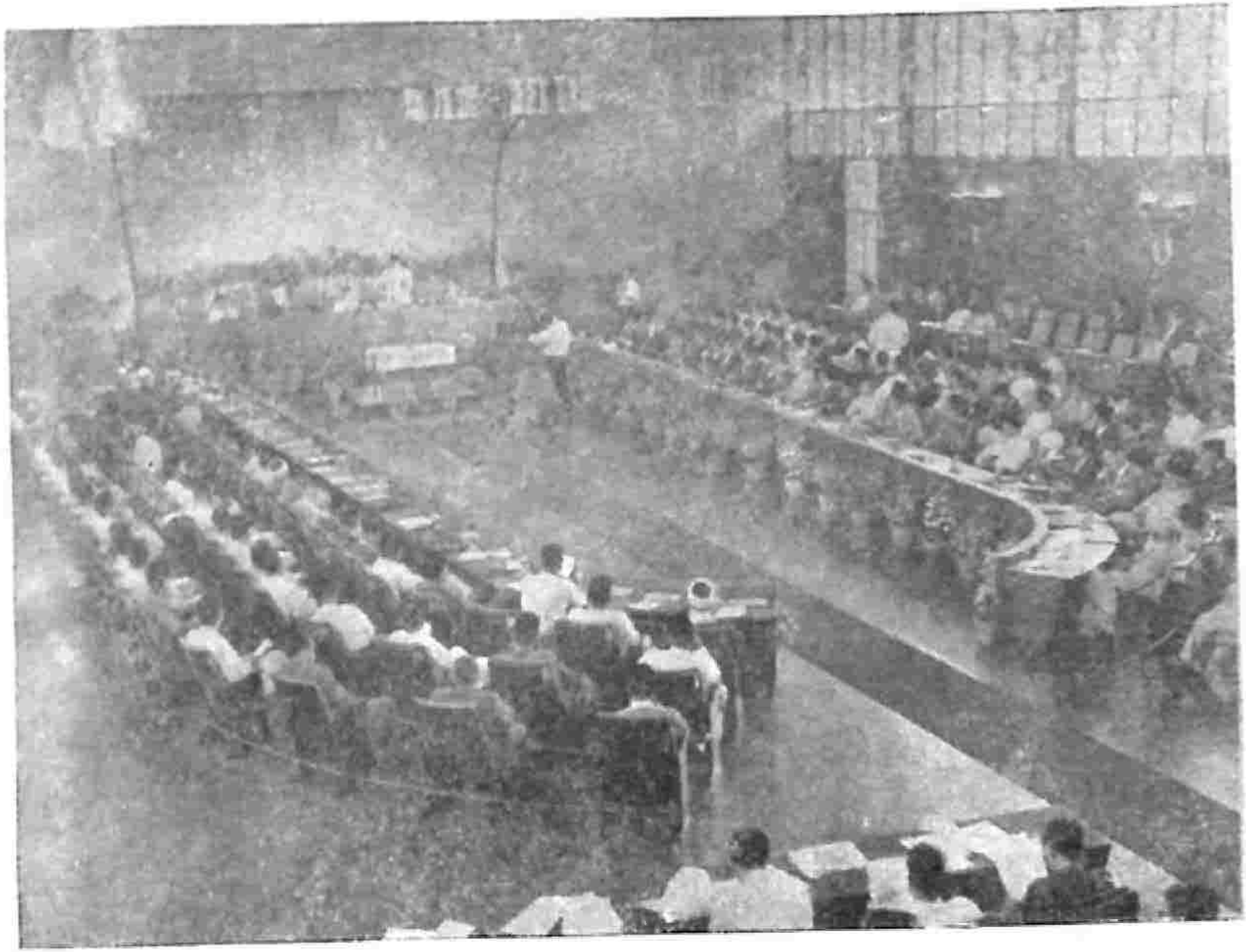

ماليزيا : قاعة المؤتمر ، صالة تنكو عبد الرحمن